

طيري يا طيارة

قصة: أماني العشماوي

رسوم: هنادي سليط

دار نهضة مصر



قصة: أماني العشماوي　　　رسوم: هنـــادي سليـط

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 3-4409-14-977
رقم الإيداع: 2011/14199
الطبعة الأولى: يناير 2012

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة



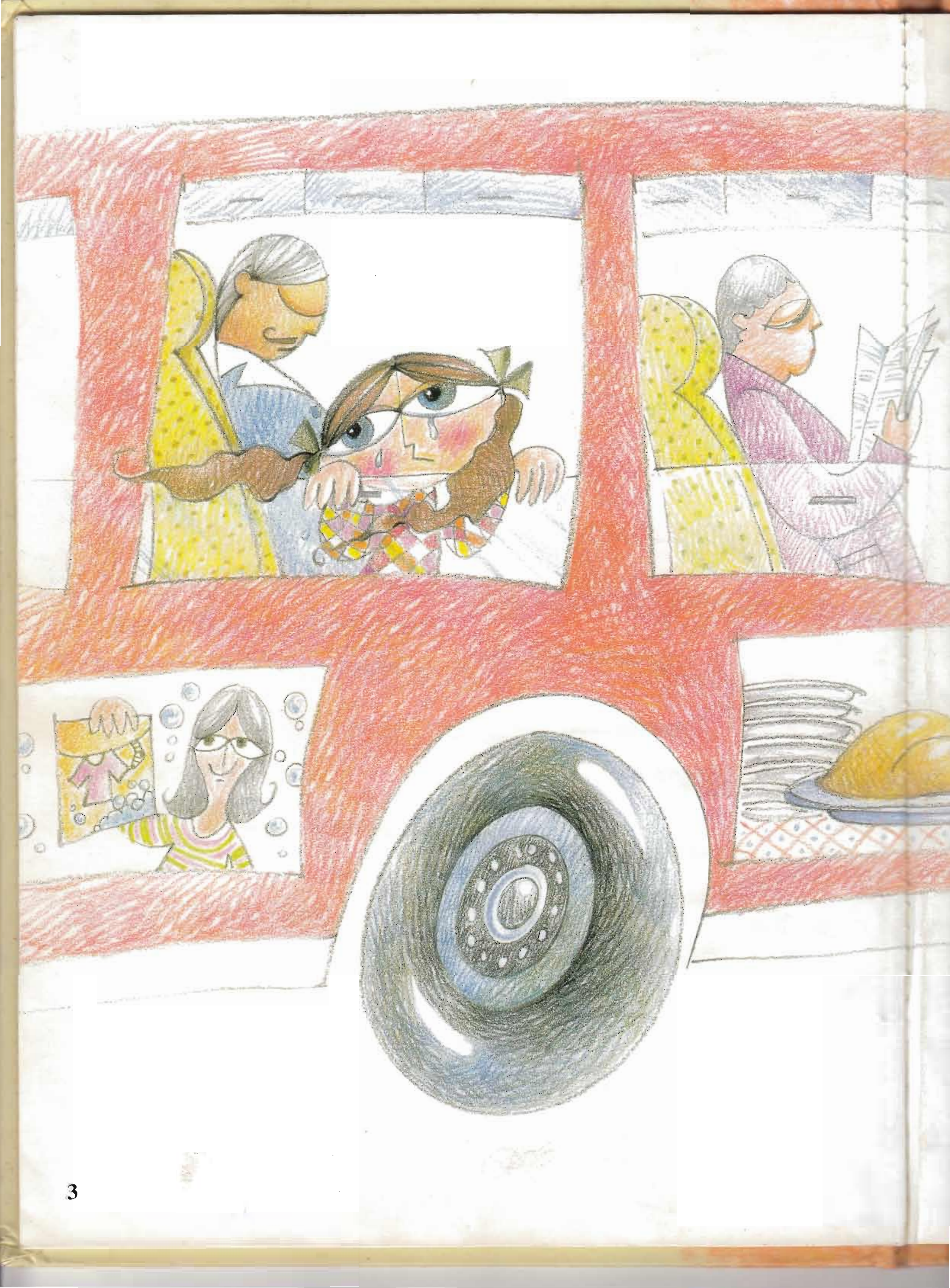
تَسَلَّقْتُ سُلَّمَ الحافلةِ وأنا لا أزالُ أبكِي، كنتُ أبكِي طولَ الأُسبوعِ.. لمْ أكنْ أبكِي كلَّ الوقتِ. وإنَّما أبكِي كُلَّما تذكرتُ ما وصلتْ إليهِ أحْوالِي.

أنا زهراء.. عُمرِي تسعُ سنواتٍ، كنتُ أعيشُ معَ أبِي وأمِّي في مدينةِ السُّوَيس. فلمَّا تُوُفِّيَ أبِي منذُ عامينِ، انتقلتُ معَ أمِّي للإقامةِ في شقةٍ صغيرةٍ مُقابِلَةٍ لشقةِ خالتِي في العبَّاسيَّةِ.

ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أمِّي أيضًا، ولم يعُدْ لي مكانٌ أعيشُ فيهِ ولا أهلٌ أعيشُ بَينَهُم؛ لهذا كنتُ أبكِي كلَّما تذكرتُ حالِي.

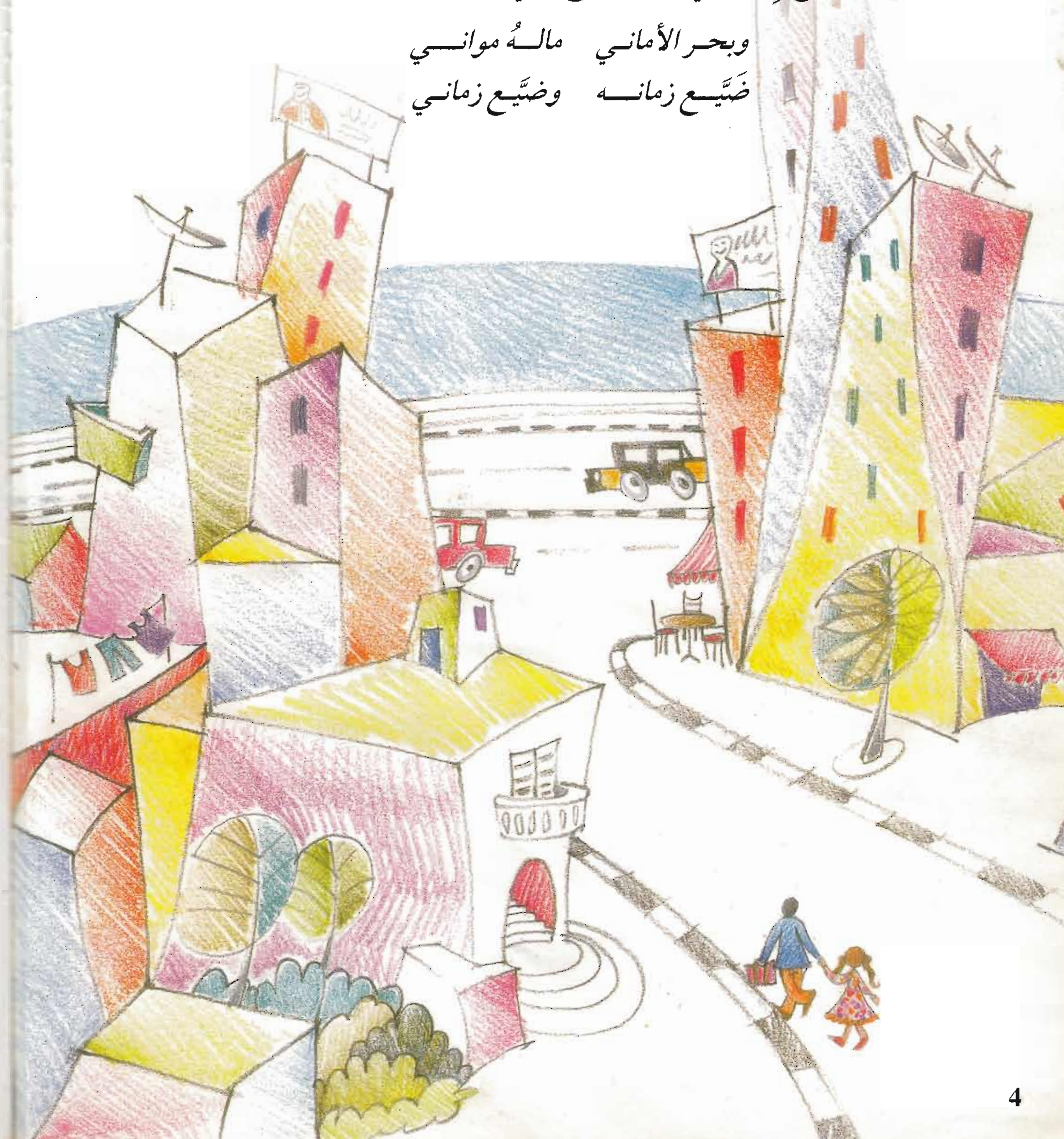
اتصلَ زوجُ خالتِي بابنِ عمِّ أبِي في الإسكندريةِ، واتفقَا على أنْ أُسافرَ لأعيشَ معهُ.

وفي اليومِ التَّالي مُباشرةً، ذهبتُ مع زَوْجِ خالتِي بالحافلةِ إلى بيتِ ابنِ عمِّ أبِي في العَجَمي.



نَزَلْنا منَ الحافلةِ في الشارعِ الرئيسيِّ، وحملَ زَوْجُ خالتِي حقيبةَ مَلابسي، وسِرْنا في طريقٍ ضيِّقٍ بينَ البيوتِ حتَّى وصلنَا إلى البحرِ.. وهناك سِرْنا بمحاذاةِ سُورٍ مُنْخَفِضٍ يَفْصِلُ بينَ الشارعِ وشاطِئِ البَحرِ.. وبعدَ قليلٍ، رأينَا ولدًا في مثلِ طولِي تقريبًا يسيرُ فوقَ هذا السُّورِ على يديْهِ، وقد رفعَ رِجْلَيْهِ في الهواءِ وراحَ يُغنِّي:

وبحـر الأمانــي　　مالــهُ موانــــي
ضَيَّــع زمانـــه　　وضَيَّع زمانــي



ثمَّ اعتدلَ وقالَ: أهلًا وسهلًا.. هلْ تبحثونَ عنْ عُنْوانٍ مُعَيَّنٍ؟

قالَ زوجُ خالتِي: «نعمْ.. عنْ بيتِ الحاجِّ صلاح العطار».

قفزَ الصَّبيُّ إلى الأرضِ ومدَّ يدَه مُسَلِّمًا، وقالَ: «أنا عبدُ الرَّحمنِ السيد.. بيتُ الحاجِّ صلاح هناكَ.. سوفَ أصحبُكُما إليهِ».

ثمَّ نزعَ حقيبَتي منْ يدِ زوجِ خالتِي، وركضَ أمامَنا حتَّى البيتِ الثالثِ في الصَّفِّ.. ووقفَ عندَهُ وطرقَ البابَ.

لحقْنا بِهِ، فوجدْنا البابَ قدِ انْفتَحَ، وأطلَّت سيدةٌ تبدُو أكبرَ كثيرًا منْ أمِّي.

نظرتِ السيدةُ إليَّ ثمَّ شهقَتْ وقالتْ: «أنتِ زهراء.. أليسَ كذلكَ؟ أهلًا بكُما.. أنا خالتُكِ زينَب يا حبيبتِي».

دخلَ عبدُ الرَّحمن أولًا ودخلْنا وراءَهُ، فوضعَ الحقيبةَ بجوارِ البابِ.. وحيَّا الخالةَ زَيْنَبَ بإشارةٍ منْ يدِهِ.. ثمَّ غادرَ البيتَ.

جاءَ العمُّ صلاح وتبادلَ الحديثَ معَ زوجِ خالتِي، وراحتِ الخالةُ زينب تُنْصِتُ إليهمَا وقد بدَا عليها التأثُّرُ.

أمَّا أنا، فقدِ انتهزتُ الفُرْصَةَ وعدتُ إلى البكاءِ من جديدٍ.

بعدَ صلاةِ المغربِ، غادرَ زوجُ خالتِي البيتَ بعدَ أنْ حملَ حقيبتِي بنفسِهِ إلى غُرفتِي الَّتي كانتْ في أعلَى السُّلَّمِ، إلى اليمينِ من بابِ السطحِ.

أَمْضَيْتُ الأُسبوعَ الأولَ أُحاولُ الانْعِزَالَ في غرفتِي، لكنَّ تصميمَ خالتِي زَينَب كانَ أَقْوَى منْ مُحاولاتِي، فكانتْ تُناديني في الصَّباحِ لأُفْطِرَ معهُما، فإذا اعتذرتُ بأيِّ حُجَّةٍ، قالتْ ببساطةٍ: «لا بأسَ.. اجْلسِي معنا حتَّى لو لمْ تأكُلِي».





ثمَّ يخرُجُ عمِّي صلاح، فتناديني خالتِي زينب لأساعدَها في ترتيبِ البيتِ، وإطعامِ الدَّجاجِ، وتحضيرِ الطَّعام.. وفي أحدِ الأيام طلبَتْ منِّي أنْ أَكْويَ ثوْبِي.. فقلتُ لها: «لا أعْرِفُ..».

فأجابتْ بالبساطَةِ نَفْسِها: «لا بأسَ.. اجلسِي أمامِي وأنا أكوِي؛ لتتعلَّمِي».

وأدارتِ المِذْياعَ، وراحتْ تُدَنْدِنُ وهيَ تكوِي.. بينما جلستُ أمامَها ساكنَةً، أَنْظُرُ منَ النافذةِ وأُغالِبُ دُموعِي.



بعدَ انتهاءِ درسِ كَيِّ الثِّيابِ، استأذَنْتُ خالتِي أنْ أصعدَ إلى السَّطْحِ.. فأجابتْ بسماحَةٍ: «طبعًا يا حبيبتِي.. ولكنْ، منْ فضلِكِ، اذهبِي أولًا إلى الدُّكانِ واشترِي لنا مِلْحًا وعَدَسًا أصفرَ»..

فَزِعْتُ؛ لأنِّي لمْ أخرجْ منَ البيتِ وحدِي من قبلُ، ووقفتُ صامتَةً أُغالِبُ البُكاءَ.. لكنَّ خالتِي زينبَ قالتْ دونَ أنْ تلتفتَ نحوِي: «خذِي النُّقودَ من دُرْجِ المطبخِ».

خرجتُ منَ البيتِ وأنا أتَلَفَّتُ بقلقٍ، فرأيتُ عبدَ الرحمن يلعبُ كرةَ قدمٍ معَ أولادٍ آخَرِين.. فَفَرِحْتُ لرؤيتِهِ؛ فهوَ الوحيدُ الذِي أعرِفُهُ في هذا المكانِ، ولوحتُ له وأنا أُتابِعُ سَيْرِي.. فتركَ الكرةَ والزُّمَلاءَ ولَحِقَ بي.

سارَ معِي وهوَ يُشيرُ إلى ما حولَهُ قائلًا: «هذا بيتُ الحاجِّ محمود، وهَذا بيتُنا، ومنْ هنا طريقُ المدرسةِ، سأكونُ في السنةِ السادسةِ، وعندما أكبرُ سوفَ أُصبِحُ بحَّارًا».





أَوْصَلَنـي عبـدُ الرَّحمـنِ إلى بابِ بيتنَا وعـادَ للعبِ الكرةِ مـعَ أصحابِهِ..
ودخلـتُ حاملـةً المِلْـحَ والعَـدَسَ وأنـا أقلُّ تعاسـةً، وحاولتُ باقِـي اليـومِ أنْ أتفادَى
الجلوسَ معَ خالتِي زينبَ؛ حتَّى لا أبكِي منْ جديدٍ.

في صباحِ اليومِ التَّالي أجلسَني عمِّي صلاح إلى جوارِهِ، وقالَ لِي: «لقدِ انتهينَا من إجراءاتِ تَسْجيلِكِ، وسوف تذهبينَ إلى المدرسَةِ يومَ السبتِ القادمِ إنْ شاءَ اللهُ، وتلتحقينَ بالسنةِ الرابعةِ».

لا أدري ما الَّذي أزعجنِي في كلامِ عمِّي صلاح.. فانفجرتُ باكيةً، ثمَّ نهضْتُ واقفةً وانطلقتُ إلى السَّطحِ دونَ استئذانٍ.. ووقفتُ مُتَّكِئَةً على السُّورِ، ورُحْتُ أُفَكِّرُ في سببِ بُكائي.. فلمْ أجدْ سببًا معقولًا، فمسحْتُ دُموعِي وَوَقَفْتُ ساهمةً.

بعدَ قليلٍ، رأيتُ عبدَ الرحمنِ ومعهُ ولدٌ وبنتٌ متشابهانِ، يبدُو أنهمَا أخوانِ، قادمينَ من جهةِ بيتِهِ. أشارَ لي عبدُ الرَّحمن قائلًا: استأذنِي الخالةَ زينبَ وتعالَيْ معنا نشترِي طلباتٍ منَ الدكَّانِ».

فانْفَجَرْتُ باكيةً.. وقلتُ لهُ: «استأذِنْ لي أنتَ.. لا أُريدُ أنْ أطلبَ شيئًا».

توقفَ عبدُ الرَّحمن قليلًا وقد بدتْ عليهِ الحَيرةُ.. ثمَّ سارَ صامتًا إلى بيتِنا وطرقَ البابَ.

فغادرتُ السطحَ إلى غرفتِي وجلستُ فيها أَنْتَظِرُ نتيجةَ الاستئذانِ.

بعدَ دقائقَ، سمعتُ خالتِي زينبَ تنادينِي، وقالتْ: «عبدُ الرحمن وسناء وسامح ذاهبونَ إلى البقَّالِ.. منْ فضلكِ اذهبِي معهُم واشترِي لنا زيتًا وصابونًا».



أَوْمَأْتُ برأسِي.. وأخذتُ النقودَ مِنْ درجِ المطبخِ ثم خرجتُ معَ عبدِ الرحمن.. وانطلقَ هَو وسامح وسناء يسيرونَ في صفٍّ متعرِّجٍ ويَحْجِلونَ ويقولونَ:

ياوابورْ يا موَلَّعْ حُطِّ الفحمْ

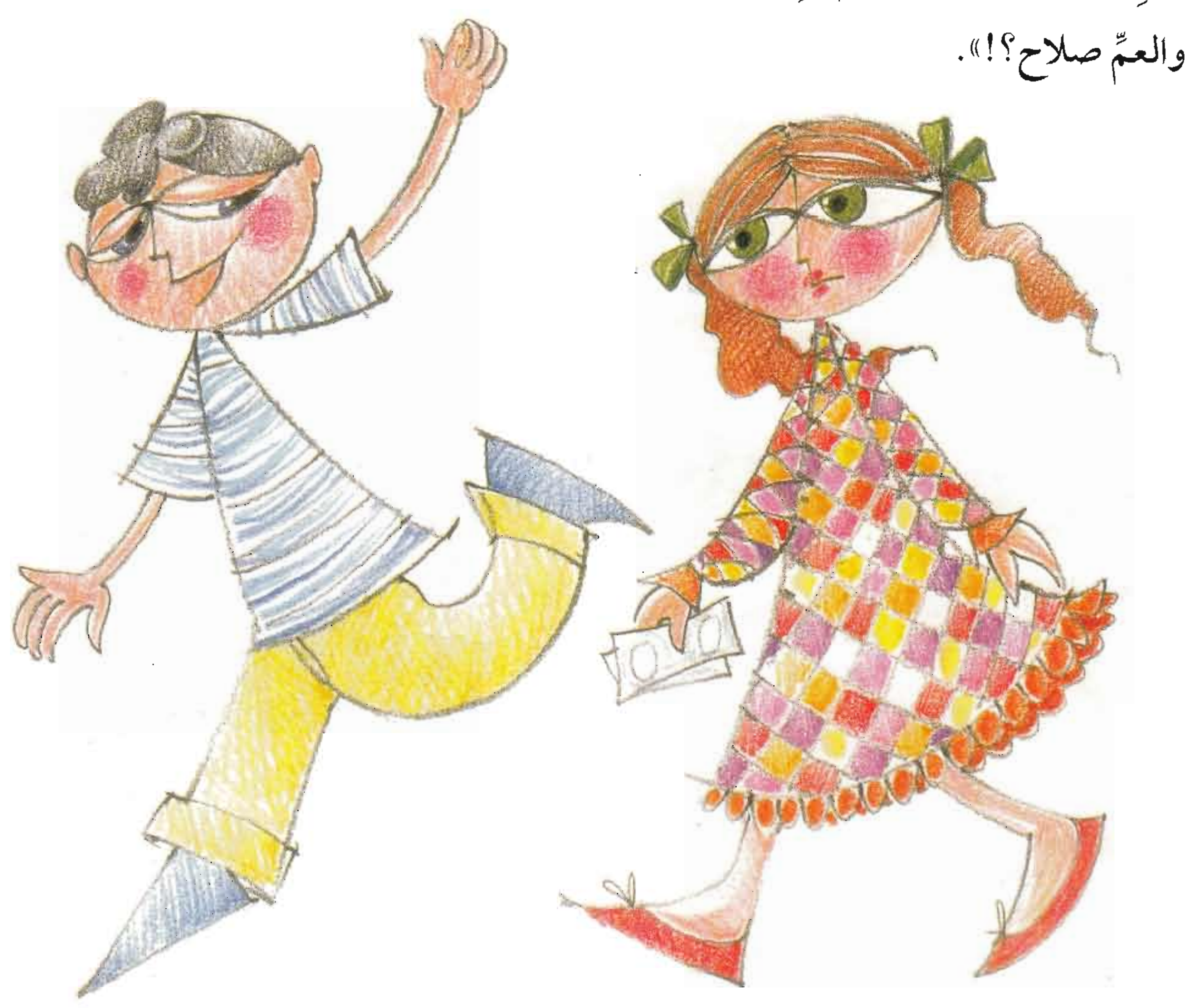
وباقولْ لَكْ وَلَّعْ حُطِّ الفحمْ

حتَّى وصلْنَا إلى الدكَّانِ واشترينَا طلباتِنا.. فانصرفَ سامح وسناء إلى بيتِهما حاملَيْنِ الأُرْزَ والزَّيْتَ.

وتابعَ عبدُ الرَّحمن السَّيْرَ معِي حاملًا طلباتِ بيتِهِ وبيتِنا.

وفي طريقِ العودَةِ سألَني: «لماذا تَبْدِينَ بائِسَةً طولَ الوقتِ؟ ألا تَتْعَبينَ منَ التعاسَةِ؟».

فوجِئْتُ، وارْتَبَكْتُ، فلَمْ أُجِبْهُ.. فقالَ: «ما الذي يُزْعِجُكِ في الحياةِ معَ الخالةِ زينب والعمِّ صلاح؟!».



زادَ ارتِباكِي.. وقلتُ بتردُّدٍ: «لا شيْءَ، إنَّهما طيبانِ.. ولكنِّي أفتقدُ أبِي وأمِّي..».

قالَ ببساطةٍ: «كلُّ الناسِ يفتقدونَ آباءَهُم وأمَّهاتِهم إذا مَاتوا.. ولكنْ ما دَخْلُ الخالةِ زينبَ والعمِّ صلاح بهذا؟!».

كانَ هـذا فوقَ احتمالِي، فانفجرْتُ باكيةً، وركضْتُ نحوَ البيتِ.. لكنِّي وَقَفْتُ أنتظِرُ لدَى البابِ؛ حتى لا أكونَ قليلةَ الذوقِ معَ الصديقِ الوحيدِ الَّذي اكتسبتُه في حياتِي الجديدةِ.

لَحِقَ بي عبدُ الرَّحمنِ، وقالَ: «عندِي خُطَّةٌ ممتازةٌ لتخليصِكِ من هذهِ التَّعاسَةِ؛ خُطَّةٌ تَعَلَّمْتُها منْ أبِي».

وقفتُ أنتظرُ أنْ يشرحَ لي خُطَّتَهُ، لكنَّه قالَ: «سآتِي يومَ الجُمُعَةِ.. وأُحْضِرُها معِي».

فَهَزَزْتُ رأسِي ودخلتُ البيتَ.



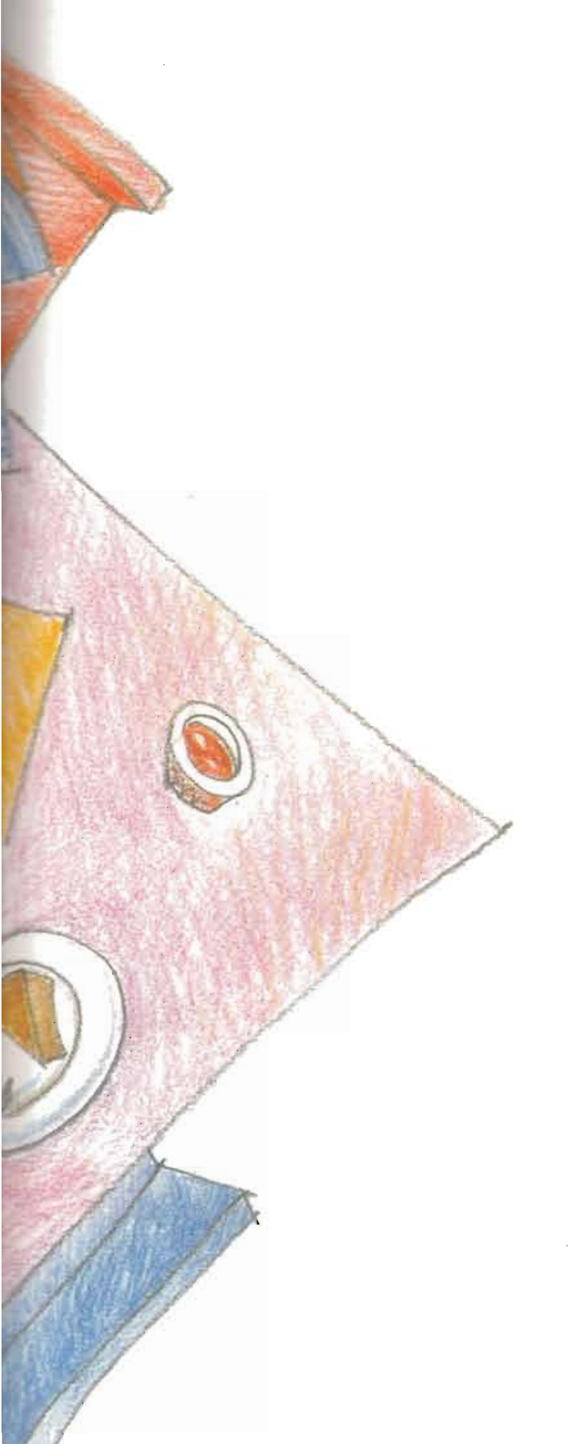


أمضيـتُ باقيَ اليومِ واليومَ الذي يليهِ أُحاوِلُ أنْ أكونَ رقيقـةً ومهذبةً مـع خالَتي وعمِّـي، وأصبحتُ أكتفِي بالبكاءِ في غُرفتِي قبلَ نومِي.. وتابعتْ خالتِي زينبُ إرسـالِي في مشاوِيرَ كلَّما استأذنْتُها فـي الصُّعودِ إلى السطحِ.

في صباحِ يومِ الجُمُعَةِ، كنتُ أَنْشُرُ الغَسـيلَ فوقَ السَّـطحِ، فسمعتُ صوتًا من جهةِ البحرِ يُناديني. ورأيتُ عبدَ الرحمـنِ ومعهُ فتاةٌ صغيرةٌ يُلوِّحانِ لي بأعوادٍ منَ البوصِ. ثمَّ أشـارَ عبدُ الرحمنِ للفتاةِ وقالَ: «هذِه مها؛ ابنةُ الحاجِّ محمود.. أختُ سامح وسناء.. إنَّنا قادمانِ لِنُعَلِّمَكِ صناعةَ الطياراتِ».

لمْ أفهمْ كيفَ أتعلَّمُ صناعةَ الطياراتِ، فهبطتُ مُسْرِعَةً لاستقبالِهِما.. لكنهمَا كانا أسرعَ منِّـي، فقدْ وجدتُهُما يجلسـانِ فـي المطبخِ معَ خالتِـي زينبَ يـأكلانِ فطيرةَ التَّمْرِ ويشـربانِ حليبًا ويحكيانِ لها عنْ مشروعِ الطيارةِ.





تركتْ لنا الخالةُ زينبُ المطبخَ وجلستْ تشربُ الشَّايَ مع عمِّي صلاح في حُجْرَةِ الجُلوسِ.

بَسَطَ عبدُ الرَّحمنِ الورقَ على طاولةِ المطبخِ، وراحتْ مها تُثَبِّتُ معهُ أعوادَ البوصِ ويَلْصِقانِ الأطرافَ بالغِراءِ.. وأنا أُتابِعُهُما بإعجابٍ شديدٍ.. كانا ساحرَيْنِ صغيرَيْنِ بالنسبةِ لي.

انتهَيَا منْ صناعةِ الطيارَةِ، ثم أَخْرَجَتْ مها منْ جَيْبِها ذيلًا طويلًا ورقهُ جَعْدٌ، راحتْ تبسطُهُ وتقولُ: «إنه ذيلُ طيارتي الَّتي تقطعتْ من هوائيِّ بيتِ جيرانِنا، كان سليمًا فاحتفظتُ به».. ثم ثَبَّتا الذيلَ في الطيارةِ.

قالَ لي عبدُ الرَّحمن: «الآنَ.. أحضِري قلمَ رَصاصٍ لا يَكْتُبُ.. سِنُّهُ مكسورةٌ».

لمْ أَجِدْ سَبَبًا معقولًا لهذَا الطلبِ، لكنِّي ركضْتُ لأعلَى بحماسٍ، وأحضرتُ قلمًا مَقْصوفًا وعدتُ مُسْرِعَةً، كأنِّي أخشَى أنْ يَفوتَني شيءٌ منَ السِّحْرِ.



فَرَشَ عبدُ الرَّحمنِ الطيارةَ على الطاوِلةِ، وأَعْطاني القلمَ..

وقـالَ: هيَّـا.. اكتبِـي مـا يُضايقُـكِ أو يُبْكيـكِ علـى ورقِ الطيارةِ»..

فنظـرتُ للقلـمِ المَقْصوفِ.. فقـالَ: «لا تضغطِي بشدةٍ حتَّى لا يتمزَّقَ الورقُ».

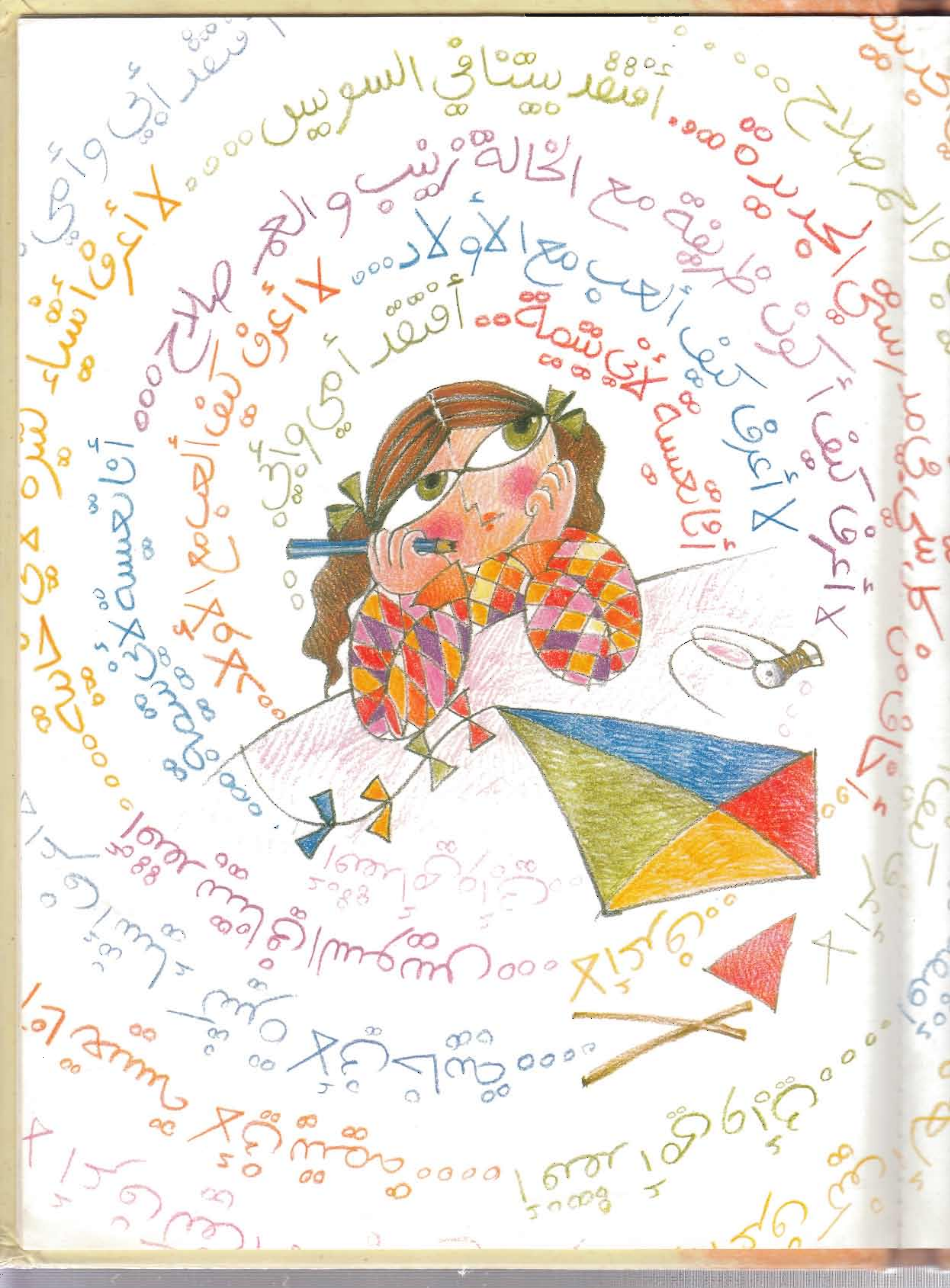
فقلـتُ هامسـةً: «لكـنَّ القلـمَ مقصـوفٌ.. لا يكتبُ».

قالَ ببسـاطةٍ: «هذا هُـوَ المقصودُ.. إذا كتبتِ بقلـمٍ لهُ سِـنٌّ، فكيـفَ تتخلَّصينَ مـنَ الضِّيقِ والحزنِ.. سـيبقَى على الورقِ إلى الأبدِ.. ثمَّ إنَّ كلَّ الناسِ سـيقرءونَهُ ويعرِفونَ كلَّ شـيءٍ عنْ أحزانِكِ».

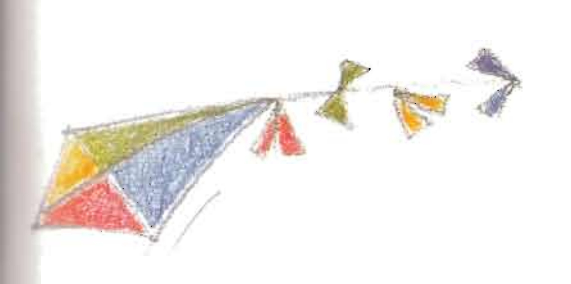
كانَ كلامًـا مُقْنِعًا.. فجلسَ عبـدُ الرَّحمنِ ومها يتحدثـانِ عنْ أخبارِ المدرسـةِ، ورحتُ أنا أكتبُ كلَّ ما خطَرَ على بالِي منْ همومٍ وآلامٍ كنتُ أشـعُرُ بها ثقيلةً على قلبِي مثلَ الجبالِ.

حملَ عبدُ الرحمنِ الطيارةَ، وحملتْ مها ذَيْلَها وخرجتُ وراءَهُما في موكبٍ مَهيبٍ، حيَّا عبدُ الرَّحمن عمِّي وخالتِي، وقالَ بوقارِ القائدِ: «سنخرجُ إلى الشطِّ لنُجَرِّبَ الطيارةَ».

فأومأَ عمِّي برأسِهِ مُوافِقًا.



أفتقد ستّي في السويس
لا أعرف كيف ألعب مع الأولاد
أفتقد أمّي وأبي
أنا تعيسة لأنّي شقية



رَاحَ عبدُ الرَّحمن يجرِي وهوَ يدفعُ الطَّيارةَ لأعلَى، ومها تجرِي وراءَهُ وهيَ تُمْسِكُ الحبلَ الموصولَ بالطيَّارةِ.. وأنا أَتْبَعُهُما بحماسٍ وإعجابٍ.. حتَّى ارتفعتِ الطيارةُ في الجَوِّ. فأخذَ عبدُ الرَّحمن الحبلَ منْ مها وراحَ يُناوِرُ ويَجْذِبُ الحبلَ ثم يُرْخيهِ بثقةٍ ومهارةٍ.. حتَّى حَلَّقَتِ الطيارةُ.. فَرُحْتُ أَقْفِزُ وأُصَفِّقُ منْ شدةِ السعادةِ.

ووقَفَتْ مها بِجِواري تُصَفِّقُ وتقفِزُ مثلِي.. وكانَتْ تَحْمِلُ عودَيْنِ مِنَ البوصِ تُلَوِّحُ بهما، فأعطتنِي واحدًا، ورحنَا نُلوِّحُ للطيارةِ معًا.



تسلَّق عبدُ الرَّحمن برجَ المُراقبَةِ، وجلسَ في مقعدِ الغَطَّاسِ وظلَّ يجذِبُ الحبلَ ويُرْخيهِ لِتَرْتَفِعَ الطيارةُ وتُحلِّقَ..

وجلستُ معَ مها على رمالِ الشاطئِ، وسألَتْني: «هلْ تعرفينَ فيروز؟».

فقلتُ بسرعةٍ: «طبعًا أعرِفُها».. ثم ارتبكْتُ واحترتُ: أيَّ فيروز تَعني يا تُرَى؛ المغنيةَ اللبنانيةَ، أمِ الممثلةَ المصريَّةَ أمْ شخصيةً منْ قصصِ ألفِ ليلةٍ.. أم حجارةَ الفيروزِ الَّتي تشتهرُ بها سيناءُ؟!

لكنَّ مها قطعتْ حيرتي وراحتْ تُغَنِّي:

طِيري يا طيَّارة طِيري   يا ورقْ وخيطان
بدِّي أرجعْ بنتْ صغيرة   على سطح الجيرانْ





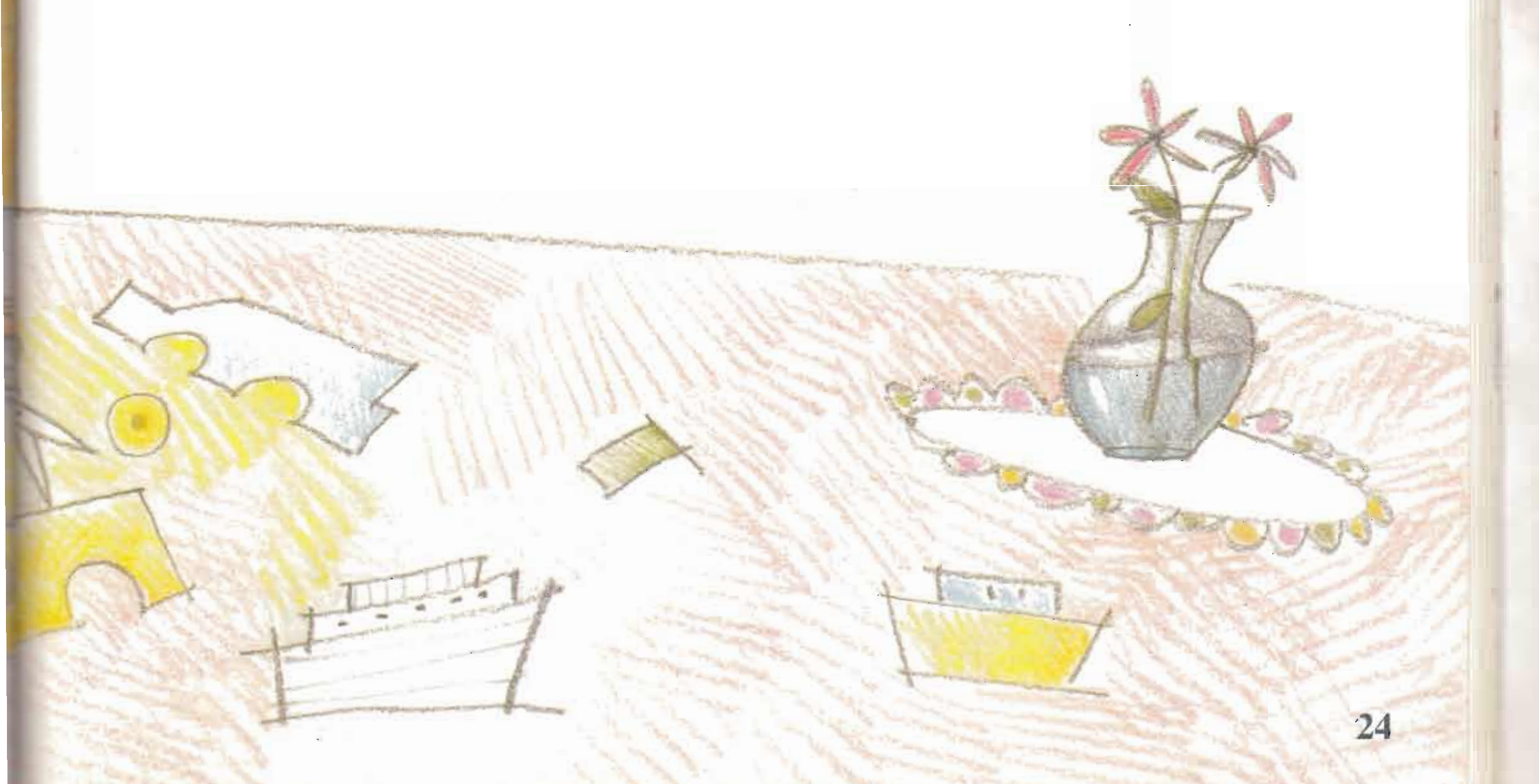


كانتْ مفاجأةً جميلةً، فأنا أعرِفُ الأغنيةَ وأُحِبُّها، فَرُحْتُ أُغَنِّي معها بانسجامٍ وسعادةٍ حتَّى انتهتِ الأغنيةُ.. وأَعَدْنا غِناءَها مراتٍ ومراتٍ.. حتى خرجَ عمِّي صلاح ونادَى عبدَ الرحمن ليستعدَّ لصلاةِ الجُمُعةِ، فنزلَ وسلمِني الحبلَ وهو يقولُ: «لقد طارتْ همومُكِ كلُّها في الفضاءِ.. وانْمَحَتْ».. ثم أسرعَ إلى بيتهِ.

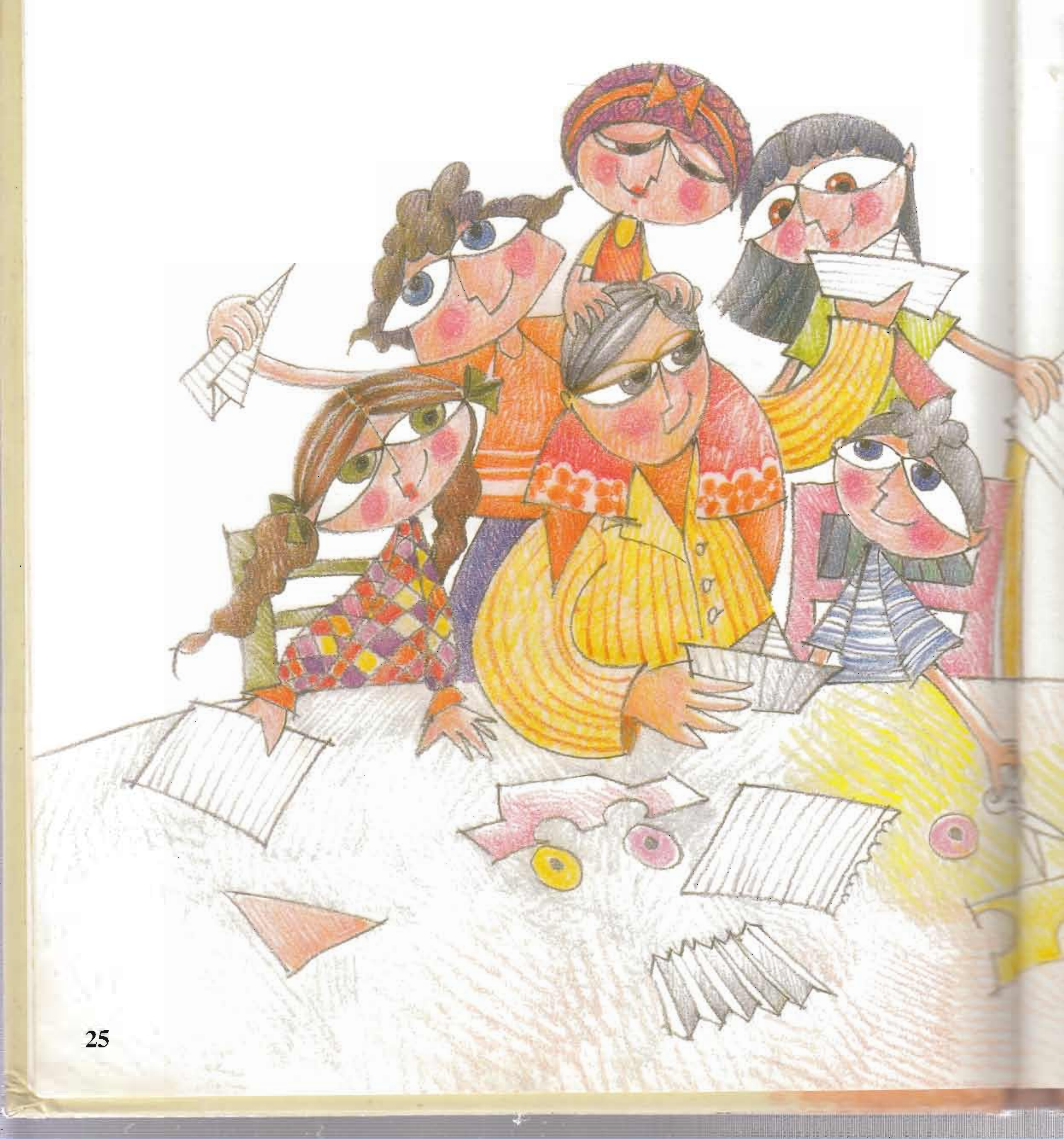
سـلَّمتُ الحبلَ في الحالِ إلى مها، وسِـرْنا معًا على السورِ ونحنُ نُغَنِّي، والطيـارةُ تطيـرُ خَلْفَنا حينًـا وأمامَنا حينًا آخـرَ.. حتَّى اكتفَيْنـا، فأنزلناها وحملنَاها إلى غُرفتِي، وجلستْ مها تَحْكِي لي عنْ نِظامِ المدرسةِ.

بعـدَ الصَّـلاةِ، عادَ عبدُ الرحمن ومعهُ سـامح أخو مها، واسـتأذنَ خالتِي أنْ نذهـبَ معَهما إلى بيتِ عبـدِ الرَّحمن للغداءِ، فأُمُّهُ قـدْ أعدَّتْ لنا فَتَّةَ كـوارع.. وافَقَـتْ خالتِي، وانطلقْنَـا جميعًا إلى الخـارجِ لِنَمُرَّ على بيتِ الحاجِّ محمود ونَدْعوَ هناء وسناء أُختَيْ مها وسامح.

الغريبُ في الموضوعِ أنني لا أعرِفُ طَعْمَ الكوارِعِ، وكنتُ أرفضُ تَذَوُّقَها مِنْ قبلُ، لكنِّي نسِـيتُ هذهِ الفكرةَ وانطلقتُ سـعيدةً بحياتِي الاجتماعيةِ الجديدةِ.. وكنتُ أُرَدِّدُ لنفسِي طُوالَ الوقتِ: «لا بدَّ أنَّ الطيارةَ قد حملتْ همومِي وطَيَّرَتْها في الفضاءِ وخلصتْنِي منها للأبدِ».



قضينَـا وقتًا ممتعًا عنـدَ أمِّ عبدِ الرَّحمن، وتعرفْتُ إلى أبِي عبدِ الرَّحمن الذي راحَ يُعَلِّمُنا كيفَ نَصْنَعُ سفنًا وسياراتٍ ودباباتٍ منَ الورقِ.





فـي صبـاحِ اليـومِ التَّالي، حملـتُ حقيبتِـي وأوراقِي الرَّســمية، وخرجـتُ وَجِلَـةً فـي طريقِـي إلـى المدرسـةِ، لكنِّـي وجـدتُ عبدَ الرَّحمن وسـامحًا وسـناء ومهـا في انتظارِي، فسِـرْنا معًا.. وفجأةً، قرَّرتُ أنْ أكونَ شخصيةً اجتماعيةً وأبدأَ أنا الحديثَ..

فقلتُ لعبدِ الرَّحمنِ: «إنكَ لا تُشْبهُ أُمَّكَ على الإطلاقِ!».

ضحكَ ببسـاطة، وقالَ وهو يسـيرُ بهمَّةٍ: «لأنَّها ليستْ أُمِّي.. هيَ الَّتي رَبَّتْني، لكنَّها لمْ تَلِدْني!».

خَجِلْتُ منْ تسرُّعي في الكلامِ، فَسِرْتُ صامتةً باقيَ الطريقِ.

كانتْ تلكَ أولَ ليلةٍ لم أبكِ فيها قبلَ أنْ أنامَ.

فـي يـوم الجمعـةِ التَّالـي، بعـدَ الإفطـارِ قالـتْ لـي خالتِـي زينـب: «تعالَـيْ يـا زهـراء لِنُنَظِّفَ غُرفَتَكِ».

فوجئتُ بنفسِي أقولُ: «ولماذا أُنَظِّفُها أنا؟!».

ثمَّ ارتبكْتُ، وأردتُ أن أُصَحِّحَ موقفِي، فقلتُ: «لا أعرِفُ كيفَ أُنَظِّفُ الغُرَفَ».

لكنَّ الخالةَ زينبَ ردَّتْ بهدوءٍ: «إذْن.. تعالَيْ معي وسوفَ أُعَلِّمُكِ».

كَتَمْـتُ بكائِي وصَعِدتُ خَلْفَهَا إلى الغُرْفَةِ، وراحتْ هيَ تَنْفُضُ الغُبارَ، وتُعْطيني المِنْفَضَةَ لأُكْمِلَ العَمَلَ.. ثم تَكْنُسُ قليلًا وتُعْطيني المِكْنَسَـةَ.. وهكذا حتَّى انتهيْنَا، فنزلتْ هيَ إلى الطابقِ الأرضِيِّ.. وخرجتُ أنا مسـرعةً إلى السـطحِ لأبكيَ.. فوجدتُ عبدَ الرَّحمن يسيرُ فوقَ السُّورِ وهو يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ كأنهُ قائدُ جَوْقَةٍ، ويُغَنِّي:

بيـنْ شطِّين ومَيَّهْ — عِشْقتكْـم عِينَـيَّ

يـاغاليـينْ علـيَّ — يا اهلِ اسكندريهْ

فَضَحِكْتُ بدلًا مِنْ أنْ أبكِي. وناداني بأعلَى صوتٍ: «انزلي يا زهراء لنذهبَ إلى المَرْسَى».

قلتُ: «لا أستطيعُ».

قالَ: «لمَ؟ هلْ أُصيبتْ قَدَمُكِ؟».

قلتُ: «كلَّا.. لكنِّي أغضبتُ الخالةَ زينب.. أَظُنُّ أنني أغضبْتُها».

توقفَ وقالَ: «أمرُكِ عجيبٌ.. إنكِ ذات قوًى خارقةٍ.. لم أَرَها غاضبةً قطُّ.. ماذا فَعَلْتِ؟».

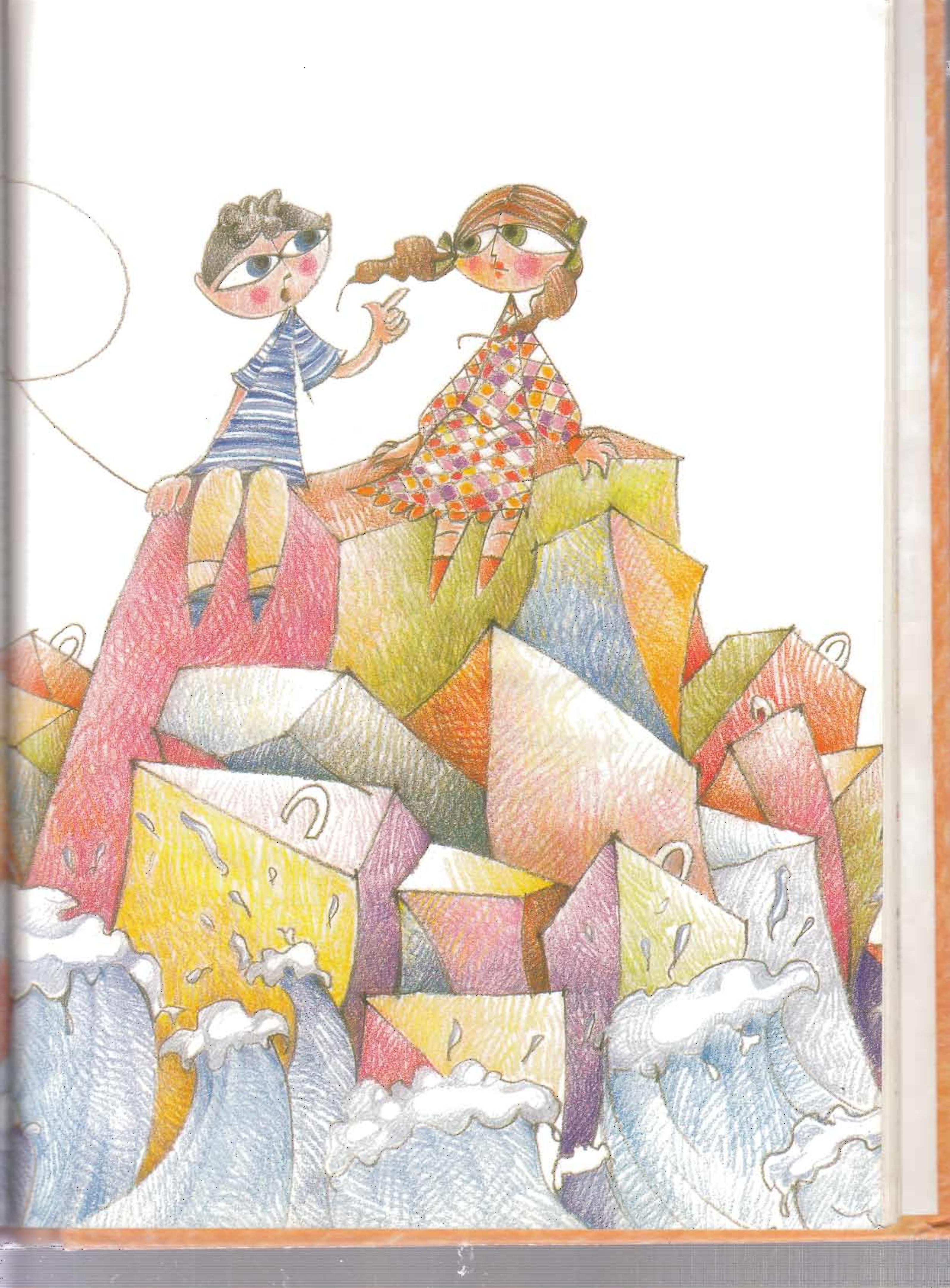


هززتُ كتِفَيَّ كأنِّي أقولُ: «لا أدري»..

فقدْ كنتُ فعلًا لا أدري ما الَّذي فعلتُهُ بالضبطِ لأُغْضبَها.. فَرُحتُ أُفكِّرُ: «هلْ صحيحٌ أنني أَغْضبْتُها؟».

ولمْ أجدْ كلامًا أَرُدُّ به على عبدِ الرَّحمن.. فأشرتُ له أنْ يَنْتَظِرَني، وهبطتُ السُّلَّمَ مُسرعةً، وسألتُ الخالةَ زينب وأنا أُداري خَجَلي: «هل أستطيعُ أنْ آخذَ الطيارةَ وأذهبَ مع عبدِ الرَّحمن إلى المَرسَى؟».

قالتْ: «نعمْ.. اذهبي».. فحملتُ طيَّارَتي الورقيةَ وقلمِي المقصوفَ وخرجتُ في الحالِ.. فهذهِ فرصةٌ مناسبةٌ للتخلصِ منْ تعاسَةِ موقفِي منْ تنظيفِ الغُرْفَةِ.



كانَ عبـدُ الرَّحمن ينتظرُنـي لدَى الباب، فجلسْنَا علَى السُّورِ، وكَتَبْتُ هُمومي علَى ورقِ الطيَّـارةِ بالقلـمِ المقصـوفِ.. ثـم أطلقنَاها وركضْنا بهَا علَى السُّورِ حتَّى وصلْنَا إلى اللسانِ الحجريِّ الذي يَحُدُّ ميناءَ الصيدِ من جِهَةِ الغربِ، وجلسْنَا على الصُّخورِ نُراقبُ القـوارِبَ وهي عائـدةٌ منْ رحلاتِ الصَّيدِ، فتقفُ في المَرْسـى وتُنْـزِلُ حمولَتَها.. بينما تُحَلِّقُ الطيارةُ في الهواءِ.

..وفجـأةً، خَطَـرَ ببالِـي خاطـرٌ غريبٌ، فسـألتُ عبـدَ الرحمن: «مـاذا تفعلُ عندمـا تتذكرُ المرحومَةَ والدَتَكَ؟».

قالَ: «لا أفعلُ شيئًا.. فأنا لمْ أرَها ولمْ أعرفْها».

لا أعـرفُ كيـفَ أَتَتْنـي هـذِهِ الجـرأةُ، فتابعـتُ: «ومـاذَا فعلـتَ عندمـا تـزوجَ والـدُكَ مرةً أخرَى؟».

التفتَ عبدُ الرَّحمن نحوِي مُتَعَجِّبًا، وقالَ: «لمْ أفعلْ شيئًا، فأبِي لم يتزوَّجْ مـرَّةً أُخرَى.. كما أنه ليـسَ أبِي الحقيقـيَّ، وإنما هوَ أبِي الذي ربَّاني.. أمَّا أبي الحقيقيُّ فلمْ أرهُ أصلًا».

شـعَرتُ أنني أسـقُطُ في أعماقِ البحرِ.. لا أدرِي ماذا أصابَني.. فقد قَتَلَني الخَجَلُ منْ فضُولي وكثرةِ أسئلتِي. ولـم أدرِ ماذا أفعلُ.. ففكرتُ في اللجوءِ للشيءِ الوحيدِ الذي أُتْقِنُهُ.. أنْ أبكِي..

لكنِّي خَجِلْتُ منْ نفسِي.. فهاهُوَ عبدُ الرحمن لا يشْعُرُ بالتعاسةِ، معَ أنهُ يَتيمُ الأبِ والأمِّ مثلِي.. بلْ إنَّ حالَهُ أَتْعَسُ منْ حالي، فهُو لمْ يرَ أباهُ ولا أمَّهُ، ولم يَعْرِفْهُما أصْلًا.. ومعَ ذلكَ، فهوَ يساعدُني علَى التخلُّصِ منْ تعاستِي.

مالتِ الشَّمسُ نحوَ الغروبِ، فهبَّ عبدُ الرحمن واقفًا، وانطلقْنا نَجْري نحوَ البيتِ، والطيارةُ تطيرُ خلفَنا، كأنها تُحاولُ اللِّحاقَ بنا .. حتَّى اقتربْنا منْ بيتِنا، فراحَ عبدُ الرَّحمن يَجْذِبُها منْ حبلِها حتَّى هبطتْ إلى الأرضِ، فحملتُها بِنَفْسي.. ودخلتُ بيتَنا وأنا أَحْجِلُ على نغماتِ أُغنيةِ: «يا حمام البرّ هَفْهَفْ».

أظنُّ أنَّ خالتِي زينب وعمِّي صلاح قد لاحظَا تغيُّرًا كبيرًا في شخصيَّتي منذُ ذلكَ اليوم.. فقد كنتُ أخجلُ منْ نفسِي كلَّما رأيتُ عبدَ الرَّحمن أو تَذَكَّرْتُهُ.. كما خَلَّصَتْني الطَّيارَةُ التي صنعَها لي منَ البقيةِ الباقيَةِ منْ تعاسَتِي.

وقدْ ظللتُ أستعمِلُ هذهِ الطيَّارةَ السِّحْريَّةَ بعدَ ذلكَ لمدةِ ثلاثِ سنواتٍ.. ثمَّ توقفتُ عنِ استِعمالِها.. لكنَّني احتفظتُ بها لأُعْطيَها لطفلٍ آخرَ تعيسٍ، يحتاجُ إلى وسيلةٍ مضمونَةٍ تخلِّصُهُ منْ تعاسَتِهِ.








دار نهضة مصر
للنشر

طيري يا طيارة



سعادة الإنسان وتعاسته تنبع من داخل نفسه..

وليس من الأحداث أو الظروف التي تحيط به.

زهراء فتاة صغيرة، يتيمة الأبوين، منطوية على نفسها،

دائمة الحزن وكثيرة البكاء،

انتقلت للحياة في بيت جديد ببلد جديد، بين أناس غرباء عنها.

كيف تتخلص زهراء من حزنها الدائم وبكائها المستمر؟..

ومن الذي ساعدها على التخلص من تعاستها وانطوائها؟..

وما هي حكايته؟





www.nahdetmisr.com

